وما نرسل بالآيات إلا تخويفا

هذا الجزء من الآية الكريمة (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) [الإسراء: 59] كان جوابا واستدراكا على سؤال قريش عن الآيات الكبرى، للدلالة على صدق رسالة النبي ﷺ، قال ابن عباس: سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي عنهم الجبال، فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت نؤتهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا، كما أهلكت من قبلهم، قال: «بل أستأني بهم» فأنزل الله تعالى الآية[1].

والمعنى أن الله تعالى أخبر النبي صلى الله عليه السلام ردا على سؤال أهل مكة، أنه ما صرفنا عن الإتيان بما يقترحونه من الآيات إلا تكذيب المتقدمين الأولين بأمثالها، فإن أتينا بها وكذب بها أهل مكة وأمثالهم، عجلنا لهم العذاب، ولم يؤخروا، كما هي سنة الله في خلقه، فإننا لو أرسلنا بها إليها، فكذّبوا بها، سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها.

الآيات التي طلبها أهل مكة؟

أما الآيات التي طلبها أهل مكة كما سبق في سبب النزول هي:
– جعل الصفا ذهبا
– تنحية الجبال عنهم
– جعل أراضيهم صالحة للزراعة
فالآيات التي يبعثها للانتقام على الأمم السابقة على مثال ثمود قوم صالح عليه السلام، فإنها تتحول إلى العذاب إذا عارضها الناس ولم يؤمنوا بها. فإن ثمود وقومه طالبوا من صالح عليه السلام أن يأتيهم بآية تصديقا لنبوته، كما طلب المشركون من أهل مكة، لكن كفر ثمود فكانت الآية التي هي الناقة نقمة عليهم وعذابا.

قال ابن عاشور: وخص بالذكر ثمود وآيتها لشهرة أمرهم بين العرب، ولأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكة يبصرها صادرهم وواردهم في رحلاتهم بين مكة والشام[2].

{وما نرسل بالآيات إلا تخويفا} أي ولا نبعث بالآيات إلا تخويفا للناس من نزول العذاب العاجل لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، فإن لم يخافوا وقع عليهم.

ذكر ابن كثير أن الكوفة رجفت (زلزلت) على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وروي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلن ولأفعلن. أي ليعاقبن العاصي المجاهر به.

وفي الحديث المتفق عليه بين الشيخين: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره، ثم قال: يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا».

التخويف في قوله تعالى (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا)؟

الآيات الكبرى مثل الزلازل والبلابل والبراكين والفتن والنكبات العامة من الآيات الكونية، أو الآيات المنزلة على الأنبياء من المعجزات والدلائل، لا يرسلها إلى الناس إلا لتكون عبرة للمعتبرين وإنذارا للغافلين، فإن الله يخوف بها من يشاء من عباده.

قال الطبري: وما نرسل بالعبر والذكر إلا تخويفا للعباد. عن قتادة، قوله: {وما نرسل بالآيات إلا تخويفا} [الإسراء: 59] وإن الله يخوف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكرون، أو يرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه.

جاء في تفسير القرآن الثري الجامع:

"قوله {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}: أي: ما نرسل بالآيات؛ آيات التنزيل، أو المعجزات، أو الكونية إلا حصراً، وقصراً؛ لتخويف العباد؛ كي يتذكروا، أو يتعظوا، أو يصحوا من سباتهم، ويتوبوا إلى الله، ويؤمنوا به، وبما أُنزل عليهم من الآيات وتشمل الآيات الكونية، والزلازل، والبراكين، والأحداث الجوية.

{إِلَّا تَخْوِيفًا}: أي: إنذاراً؛ أي: وما نرسل بآيات القرآن إلا تحذيراً، وإنذاراً بعذاب الآخرة، والخوف: هو توقع الضرر المشكوك في وقوعه، وأما الحذر: فهو توقي الضرر سواء أكان ظناً أم يقيناً".

الاعتبار بهذه المصائب العامة والآيات الكبرى، والتخويف منها، على أقسام كما ذكر ابن عطية:

- قسم عام في كل شيء: إذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية، وهنا فكرة العلماء

- وقسم معتاد غبا كالرعد والكسوف ونحوه، وهنا فكرة الجهلة فقط.

- وقسم خارق للعادة وقد انقضى بانقضاء النبوءة، وإنما يعتبر اليوم بتوهم مثله وتصوره[3].